السفر العجب الى بلاد الذهب

للاب اميل ريتو اليسوعي (تابع لما سبق)

الفصل الرابع

في مرسيلية

وبان عن بعد «بجارة تحت القبّة الزرقاء تمثال مريم العذراء المنصوب فوق كنيسة بديعة بُنيت باعلى تلّ مشرف على مدينة مرسيلية فهتفوا قائلين «هوذا سيّدة المعونة» ثم رسموا اشارة الصليب على جباههم واقتدى بمثلهم كثير من الركّاب

امّا فاضل الذي ما خطر لهُ ذكر الصلاة منذ خروجهِ من بيتهِ فتلا اذ ذاك السلام الملائكي بصوتٍ متخافت. ثم ظهرت مدينة مرسيلية في منعطف التلّ الذي تشيّدت عليهِ كنيسة البتول وكان فاضل ينظر بتعجب واندهاش الى قلاعها القديمة ومنازلها المرتفعة وكنيستها الكاتدرائية ذات القبّة الذهبية ومرافئها الواسعة. وانسابت الباخرة على مهل امام المنارة فالتفت فاضل الى يمينهِ فرأى السواري متدانية بعضها الى بعض كأنّها غابة من الاشجار في وسط البحر وذلك ان المراكب الشراعية تقصد ذلك المكان لتفريغ مشحوناتها في المرفإ العتيق

امّا الباخرة فاستمرّت سائرة بين المراكب الشراعية والزوارق البخاريّة الى ان رست على مسافة عشرة امتار من الرصيف. وما كادت تقف حتى تسلّق اليها من النوتية والعتّالة عدد غفير. وكان فاضل قد لبس ثوبهُ الافرنجي الذي اشتراهُ من بيروت ووضع على رأسهِ برنيطة بدل الطربوش الاحمر. ربما انهُ لم يكن متعوّدًا هذا اللبس ارتبك في مشيته هو وسائر رفقائهِ الذين صنعوا جميعًا مثل صنيعه وبدت منهُ ومنهم حركات اضحكت عليهم كل من شاهدهم

وبينما كان الزحام شديدًا وفاضل لا يعي من كثرة النوتية المتوافدين عليهِ لإنزالهِ الى البرّ اذا بأحدهم اخذ الصندوقتين الباقيتين لهُ ووضعهما في قاربهِ وعلّق بركم فوقهما كثيرًا من صناديق أخرى لغيرهِ من الركّاب. ولمّا كان القارب صغيرًا لم يقوَ على حمل ما هو فوق طاقتهِ فغرق في الماء بما فيهِ

امّا فاضل الذي كان واقفًا في أعلى السلّم ومتهيّئًا للنزول فصرخ لدى هذا المشهد

صرخةً عظيمةً رنَّ صداها في كلِّ أرجاء الباخرة واخذ يندب حظَّهُ ويحزن لتحامل الدهر عليهِ

ثم عاد الى ظهر الباخرة مهمومًا مغمومًا . وبينما هو واقف ناداهُ التجَّارة ان يحيد من طريقهم وكانوا يحملون حبلًا عظيمًا ليعدّلوا بهِ حمل السفينة . فرأى وقتئذٍ ان يتبع رفقاءه الى المدينة فركب قاربًا اوصلهُ الى الجمرك وكان قد استصحب من لبنان قنينة من العرَق لاجل مشروبهِ على الطريق فتقاضاهُ مأمور الجمرك رَسْمَها ولكنَّهُ آثر تركها على ان يدفع شيئًا من الدراهم القليلة الباقية معهُ

ثم انَّهُ خرج من الجمرك الى رصيف جوليات (Quai Juliette) فاستلمهُ السماسرة الذين كانوا بانتظارهِ وساقوهُ مع سائر السوريين الى حيث اعتادوا سوق المهاجرين من ركَّاب الطبقة الرابعة

وحينئذٍ تركوا ذاك الرصيف الجميل الذي يتلاعب فيهِ الهواء ودخلوا في طرقات وسخة وشوارع مظلمة كانتن وراء المرفإ . ولا عجب فكما ان للبضائع مستودعات هكذا لبني آدم مستودعات . وهل هؤلاء المهاجرون في نظر السماسرة الذين يُسفّرونهم الى اميركة سوى بضائع حيَّة يتجَّرون بها . وحاصل القول انهم اوصلوهم الى ساحة مبلطة يعلوها سقف من القرميد وفيها جلسوا على البلاط ليستريحوا من مشاقّ السفر . الَّا انَّ فاضلًا لم يدخل هذا الكوخ المظلم حتى صار يتلهَّف متحسرًا على الزاوية التي قد كان احتلَّها على ظهر الباخرة لانهُ هناك كان يشاهد السماء ويستنشق الهواء اما هنا فالسماء عنهُ محجوبة والهواء الذي يستنشقهُ فاسد متلف للصحة

لكنَّهُ لتعبهِ تمدَّد في ناحية من ذلك الكوخ طلبًا للراحة ونام نومًا ثقيلًا حتى انهُ لم يستيقظ في اليوم التالي الَّا بعد شروق الشمس بساعات . وكان قد حلم في الليل انهُ لم يزل في السفينة فثارت عليها العواصف وعلتها الامواج فقلبتها فغرقت في اليمّ وشعر هو كأنهُ انتقل الى بيته في لبنان وجلس قبالة الشبَّاك واخذ يتحدَّث مع جيرانهِ يوسف وابرهيم وعبد الله وجبرائيل ويتكلَّم مع والدته فطار قلبهُ فرحًا . وبينما هو كذلك اذ أفاق من رقادهِ ورأى نفسهُ ممدَّدًا على البلاط

ثم انهُ خرج من ذاك المحلّ القاتم ليشاهد النور ولعدم معرفتهِ بطرق تلك المدينة الواسعة تتبَّع الطريق التي مشى عليها في الامس وكانت مفروشة بالحصى المحدَّدة فما سار

بضع دقائق حتى وصل الى الميناء ورأى جماعة يتجولون فيها ويتحدثون باصوات عالية. وكان غالبهم من القَمَلة وقد اتوا يوم الاحد للتنزه بقرب المحلّ الذي يشتغلون فيه يوميًّا

ورأى فاضل قومًا آخرين متجمعين على الرصيف بالقرب من مربط السفن فدنا منهم فرأى مُشَعوذًا يأتي هناك بعض انواع من الألعاب ليحصّل بها معاشهُ فوقف مبهوتًا متحيّرًا لانهُ لم يشاهد في تربيته شيئًا من ذلك. وقد لحظ هذا الامر منهُ بعض اولئك الناس فكانوا ينظرون اليهِ ضاحكين ومستهزئين بسذاجتهِ. واتفق ان احد الواقفين بجانبهِ كان كلما أتمّ المشعوذ لعبة يهتف مادحًا قوّتهُ او مستحسنًا خفّة حركاتهِ او غير ذلك فسألهُ فاضل بعض اسئلة فاجابهُ عليها شارحًا لهُ ما اشكل عليهِ من الالعاب. وحينئذٍ ذهب عن فاضل ما كان يشعر بهِ من الانقباض وحرج الصدر وطاب لهُ ان يتبادل الكلام مع ذلك الشخص المجهول عندهُ وتاه عجبًا وافتخارًا بالتفاتهِ اليهِ مع ما يظهر عليهِ من خطارة الحال ورفعة الشأن وكان يقول في نفسهِ: « حقًّا ان كل ما يقال عن ايناس الافرنسيين ورقّتهم هو دون الحقيقة »

ثم ان الرجل المجهول التفت بعد هنيهة الى فاضل فقال: ارى انك غريب فهل تشاء ان تخبرني من اين انت

فقال فاضل: من سوريّة

فقال الرجل: اني اعرف سوريّة حقّ معرفة وقد زرتها مرارًا لاني وكيل بعض المحلات في ليون ولا تزال تبتاع الحرير منها

فلما سمع فاضل هذا الكلام انفتح قلبهُ لانهُ قد طالما تعاطى هناك فلاحة التوت وتربية دود القز ومبيع الفالج (الشرانق) وخطر لهُ ان يستفهم الرجل عن حالة الحرير فقال: « هل يتصرّف حرير لبنان بسهولة وما هي اسعارهُ اليوم »

فاجاب الآخر قائلًا: « عليك ان تطلع على اسعارهِ الاخيرة ». ومدّ يدهُ الى جيبهِ متظاهرًا بانهُ يريد ان يخرج بعض الجرائد التي تدوّن حركة السوق ثم قال متأسفًا: « اني نسيتها على مكتبي قبل خروجي من المنزل ولكن ان شئت ان تذهب معي فأُطلعك عليها »

فقال فاضل: عفوًا يا سيدي فقد ثقّلت عليك

فقال الرجل: لا ثقلة في هذا وتأكد اني أُسرّ جدًّا اذا تمكّنت من ان أقدّم لك خدمةً. فلقد حرّبت الغربة قبلك وامتحنت بنفسي ارتباك المسافر لدى قدومهِ لاوّل مرّة الى

بلاد لا يعرفها. وفي ظني انهُ لم يمرّ عليك زمن يُذكر في هذه البلدة

قال فاضل: «كلاَّ فقد وصلت اليها يوم امس لانَّ الباخرة كونتو تأخرت يومًا عن ميعادها». واخذ فاضل يقصّ خبر سفرهِ من اوَّلهِ الى اخرهِ ولكن بعد ان اسهب خاصَّةً في خسارة صناديقهِ

فقال الرجل: «حقًّا انهُ ليشقّ على المرء جدًّا ان يفقد شيئًا من امتعتهِ حالما يصير على وشك النزول الى البرّ. ولا شكّ انَّ بعض النوتية قوم اجلاف غلاظ الرقاب ولو كنت تعرف الذين انزلوا صناديقك لكان من السهل ان ترفع الشكوى عليهم الى رجال الشرطة (البوليس) ليلزموهم بالتعويض عليك. واعلم ان افضل شيء يجب على المسافرين صنيعهُ هو أن لا يتزاحموا على النزول الى البرّ حال وصول الباخرة ومن الامور المهمَّة ايضًا ان لا يضعوا ثقتهم في احدٍ

«ولا ريب انَّك لا تعرف اصلًا مدينة مرسيلية ودورانك فيها يعرضك لسرقة النشَّالين الصديدين الذين يسلبون المارَّة بلباقة غريبة دون أن يشعروا. وفي يوم الاحد الماضي كان احد المهاجرين واقفًا مثلك في هذا الموضع يشاهد الالعاب فقطعوا كيس دراهمه واركضوا الى الفرار وما كاد يدري باستلابه حتى كانوا قد صاروا بعيدين عن الابصار»

فلمَّا سمع فاضل كلامهُ مدَّ يدهُ حالًا الى منطقتهِ التي كان قد اودع فيها دراهمهُ. أمَّا الرجل فلحظ هذه الحركة منهُ ثم حوَّل نظرهُ عنهُ سريعًا وغيَّر وجه الحديث قائلًا: «انهُ باقٍ للظهر اربع ساعات يمكنك ان تطوف فيها المدينة وتشاهد آثارها. وفي يوم الاحد كما تعلم لا شغل ولا عمل وقد خرجتُ من الصباح اجول وحدي ولا رفيق لي وما صدَّقت اني رأيتك لأتسلَّى بعشرتك فهلمَّ نذهب»

ثم ان الاثنين انطلقا مسرعين الخُطى أمام صفوف الأنابر حتى انتهيا الى رصيف جوليات وكانت عجلات التراموي واقفة هناك تنتظر ركابًا. فقال الرجل لفاضل: «تعالَ نركب ان شئت ونذهب اوَّلًا الى قصر الماء»

فامتثل فاضل وطلع الى العجلة التي ما لبثت ان تحركت للسفر وسارت مسرعةً وما زالت تقطع الشوارع الفسيحة والساحات والحدائق حتى انتهت الى المرفأ القديم المدعو كانبيير (Cannebière). وقد اندهش فاضل لمَّا وقعت عيناهُ على دار البورس والتهاري الفخيمة وما فيها من الطاولات الرخامية

وبعد مضي نصف ساعة تقريباً نزل الاثنان ودخلا دار التحف حيث رأى فاضل ما زادهُ تعجباً واندهالاً مثل هياكل الحيتان والنعام والزرافة وغيرهـا . وفيما هو ينظر اليها بما لا مزيد عليهِ من الدهشة قال رفيقهُ : « أنك تستطيع ان تشاهد كلّ هذه الحيوانات حيّـةً »

— وكيف ذلك

— هلمَّ الى جنينة الحيوانات لأُريك الاسود والنمورة والافيال والزرافة وسائر الوحوش

(يتلى البقية)

كتب شرقية جديدة

MATÉRIAUX POUR UN
CORPUS INSCRIPTIONUM ARABICARUM,
par Max Van Berchem
FASC. I ET II, 291 p., *PL. XXXIII, LEROUX, PARIS.*

مجموع الكتابات العربية للعلم فان برْكم

لقد تعدَّدت في هذه السنين الاخيرة الكتب الشرقية المفيدة التي سبقنا اليها علماء اوربَّة . ومن جملة التآليف التي لا يسعنا السكوت عن فضلها المجموع الذي نحن في صدده . فان العلاَّمة فان برْكم باشر هذا المشروع الجليل اقتداء بجمعية افرنسية اخذت منذ عشرين سنة في نشر الكتابات الساميَّة القديمة كالفينيقية والحميريَّة والنبطية . وقد تيسر لهُ طبع قسمين ضمَّنهما ١٨٨ كتابة عربيَّة مما عُثر على بنايات مصر منذ عهد بني أُمَّة الى ايَّام دولة الشراكسة من المماليك البحريين . واوَّل كتابة افتتح بها مجموعهُ كتابةٌ كوفية تاريخها سنة ٩٦ للهجرة موجودة على مقياس النيل في جزيرة الروضة . وقد أتبع المؤلف كلَّ هذه الآثار الخطيَّة بشروح وفوائد تاريخية عديدة وصدَّر كتابهُ بمقدمة بيَّن فيهـا تقاسيم المجموع الذي اخذ بنشرهِ . وهو مصمِّم العزم اذا انتهى من الكتابات التي وجدها في مصر على ان ينشر بالطبع ما امكنهُ من كتابات سورية وما بين النهرين والعراق والجزيرة . وفي آخر كل قسم رسوم فوتوغرافية تمثل الكتابات المشروحة

فنثني اطيب الثناء على صاحب هذا التأليف ونتمنى لهُ التوفيق في مشروعهِ ونحضُّ